

الباب الأول

فلسفة علم النفس

الفصل الأول

تعريف المفاهيم بين علم النفس والفلسفة

الفصل الثاني

طبيعة الوعي: مشكلات في فلسفة علم النفس المعاصر

الفصل الثالث

الموضوعية في العلوم الاجتماعية

الفصل الرابع

تيارات في فلسفة العلم

تعريف المفاهيم

بين علم النفس والفلسفة (*)

مقدمة

يرى برودبك M. Brodbeck أن أبسط وصف لفلسفة العلوم هو القول بأنها شكل من أشكال الكلام عن العلم، ومن هنا اختلافها عن الكلام بصوت العلم نفسه (كما تفعل الفيزياء، والكيمياء.. الخ). وقد نشأت فلسفة العلم بالمعنى الحديث الذي نتداوله مع بداية القرن العشرين. وكان نشوؤها متزامنا مع نشوب أزمة حادة في علم الطبيعة وفي الرياضيات. ففي علم الطبيعة بلغت الأزمة ذروتها مع انهيار فرض الأثير كنتيجة رئيسية لتجربة ميكلسون ومورلى Michel-son Morley التي تناولت تحديد سرعة الضوء على محورين متعامدين في الفضاء. وفي الرياضيات تبين أنه من الممكن إيجاد هندسات غير أقليدية إلى جانب هندسة أقليدس، وقال هنرى پوانكاريه H. Poincaré الرياضى الفرنسى (١٨٥٤-١٩١٢) قوله الحاسمة إنه إذا كانت هندسة أقليدس متسقة مع نفسها فالحال كذلك فى الهندسات غير الأقليدية. وكان من أهم النتائج التى ترتبت على هذه الأزمة عقب تصاعد شديد للإيمان بالعلم واليقين فى نهجه على امتداد القرن التاسع عشر، كان من أهم نتائج ذلك ارتداد الفكر الفلسفى إلى ما يشبه التوجه الرئيسى للفلسفة الكانتية، وهو التوجه الذى كان يتلخص فى الامتحان النقدى للعقل إذ يفكر، بدلا من الاندفاع إلى مزيد من إقامة أبنية فلسفية ميتافيزيقية. على هذا المنوال نُسج الفكر الفلسفى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن

(*) المجلة الاجتماعية القومية، يناير ١٩٩٤.

العشرين، مع فارق رئيسى بينه وبين الفكر الكاتى، هو أن الفكر الفلسفى مع بداية القرن العشرين اتجه إلى تركيز الاهتمام حول الامتحان النقدى للفكر العلمى بناءً ومعنى.

من هذا المنطلق يقرر بروديك أن لفلسفة العلوم وجوها أربعة تدور كلها حول مبنى العلم، ومعناه؛ وهى على النحو الآتى:

أ - العلم كنشاط يتم فى سياق اجتماعى حضارى، ما هى محدداته؟

ب - العلم كنشاط مسئول، ما هى طبيعة المسئولية الأخلاقية الملقاة عليه وعلى عاتق ممارسيه من العلماء؟

ج - لغة العلم، وهذه تتكون من عباراته أو قضاياها من حيث كونها تشير إلى علاقات بعينها، وكذلك من المفردات أو المصطلحات التى تتناولها هذه القضايا. كيف تسهم هذه اللغة فى تحديد البناء والمعنى؟ وفيم تختلف عن لغة الحياة اليومية؟ ومداللة هذا الاختلاف؟

د- العلاقات التى يثبتها العلم على أنها قائمة بين ظاهرتين أو أكثر، ما المقصود بأن س علة لـ ص ؟ وما هى البنية الأساسية للقانون العلمى؟ وما هى النظرية العلمية؟

هذه هى المباحث الأربعة الرئيسية لفلسفة العلوم كما يحددها بروديك. وهو ينبهنا إلى أن أجزاء متزايدة من المبحث الأول تدخل يوماً بعد يوم فى مجال مايسمى بـ «علم اجتماع المعرفة العلمية» وتستقل بذلك عن جسم فلسفة العلوم بمعناها الدقيق. ولكن هذه الحركة لايتوقع لها أن تنتهى إلى بتر العلاقة الجذرية مع فلسفة العلوم، لسبب رئيسى هو أن التحليل السوسولوجى للعلم لايمكن أن يتم بالصورة اللائقة دون أن يتعرض لفهم البنية الداخلية للعلم، ومعناه، وهما المحوران الرئيسيان لفلسفة العلم.

كذلك الحال مع تحليل العلم من حيث المسئولية الأخلاقية. فلكى يظل هذا التحليل له قيمة موضوعية لايمكن أن يقتصر على تقويم العلم من وجهة نظر

نظام أخلاقي بعينه، بل لا بد له من أن يدخل في اعتباره مسألة بنية العلم ومعناه.

هذا عن المبحثين الأول والثاني وما قد يثيرانه من تساؤلات حول حقيقة العلاقة التي تربطهما بفلسفة العلم. أما المبحثان الثالث والرابع فلا تثار حولهما شواذب من هذا القبيل (Brodbeck 1953).

والمشكلة التي نعالجها في البحث الراهن تنمى بوضوح إلى المبحث الثالث، مبحث لغة العلم؛ وسوف نركز الاهتمام في معالجتنا على مساحة محدودة داخل هذا المجال، هي مشكلة المفاهيم في العلوم النفسية.

جوانب شائكة لموضوع المفاهيم السيكلوجية

لكل علم صعوباته الخاصة التي تواجهه بمشكلات تتطلب في محاولة الإجابة عنها نوعا خاصا من الإبداع في أمور المنهج. وفيما يتعلق بعلم النفس هناك العديد من هذه الصعوبات التي يمكن أن توصف بأنها صعوبات استراتيجية، بمعنى أن الإجابة الموفقة عليها يمكن أن تفتح المجال أمامه ليقطع شوطا بعيدا على طريق التقدم. من هذا القبيل مثلا مسألة إثبات علاقة العلية بين واقعتين سلوكيتين، فهذه واحدة من أشد الصعوبات تعقدا وإثارة للجدل. ومع ذلك فلا يمكن التغاضي عنها أو الإقلال من شأنها بدعوى أنها مشكلة أكاديمية في المقام الأول، إذ أن مجالات التطبيق تقتضى إجابة واضحة مستقرة في هذا الصدد، وخاصة في حقل العلاج النفسى (والتطبيقات النفسية عامة)، فلا يمكن للمعالج النفسى أن يقوم بتطبيق علاج معين دون أن يفترض وجود علاقة «سببية» بين تطبيق العلاج (كمتغير مستقل) والتغيرات التي يتوقعها في المظهر السلوكى المضطرب الذى يحاول علاجه (كمتغير تابع) ومن هذا القبيل أيضا مسألة القابلية للاستعادة(*).

وأبسط المعانى التي يشار إليها بهذا المصطلح استطاعة الباحث أن يعيد استشارة العلاقة بين س (كمتغير مستقل) و ص (كمتغير تابع) عددا كبيرا من المرات.

(*) replicability

وهذه مشكلة تالية منطقياً لمشكلة علاقة السببية، وربما كانت مكافئة لها في التعقد وفي الإلحاح على ضرورة إيجاد الحل الصحيح.

ومن الصعوبات الاستراتيجية التي تواجه العلوم النفسية مطالبتنا إياها بحل إبداعي كذلك لمشكلة المفاهيم، وهي مشكلتنا المحورية في البحث الراهن. ولهذه المشكلة أوجه عديدة تواجهنا بها. وفي مقدمة هذه الأوجه أن ظواهر الحياة النفسية التي يتجه إليها علماء النفس بدراساتهم على اختلاف مستوياتها (بدءاً من المشاهدة المنظّمة، إلى التصنيف، إلى التجريب، إلى التنبؤ) لا تقدم نفسها ككيانات محسوسة بحيث تخضع لإجراءات الملاحظة المباشرة. فعلى سبيل المثال، إذا قارنا بين علم النفس والبيولوجيا وجدنا أن البيولوجيا تلتقى أمامها كيانات محسوسة تعينها على أن تبدأ طريق البحث على أرض صلبة إلى حد ما، حيث يمكنها أن تقطع أشواطاً بعيدة في تجميع المشاهدات المنظمة، وفي تصنيف حصيلة هذا التجميع. وتضمن أن يحوز هذا التجميع، ثم التصنيف إجماعاً أو ما يشبه الإجماع من أهل الاختصاص. وقد تكون هذه الكيانات، موضوع المشاهدة هي الكائنات الحيوانية أو النباتية، وقد تكون الخلايا الحية، وقد تكون أنسجة بعينها... الخ. كذلك إذا قارنا بين علم النفس والعلوم الطبيعية، سنجد فرقاً مناظراً لما وجدناه في حالة المقارنة مع البيولوجيا؛ فالعلماء الطبيعيون يجدون أمامهم كيانات محسوسة تعينهم - وقد أعانتهم فعلاً - على أن يبدأوا في وقت مبكر تجميع المشاهدات المنظمة حول ما اعتبروه موضوعاً مناسباً لبحوثهم، كما أعانتهم في وقت مبكر على المضي أشواطاً لا يستهان بها في الطريق إلى مزيد من إحكام المشاهدة (مزيد من الدقة)، ومنها إلى تصنيف الظواهر المدروسة... الخ. وقد تكون هذه الكيانات في حالة هؤلاء العلماء عناصر المادة، ثم خواص هذه العناصر، ثم تصنيفها إلى فلزات ومواد لافلزية، ورصد خصائص كل فئة... الخ. وقد ضمنت البداية على هذا النحو إجماع أهل الاختصاص، مما أتاح بعد ذلك مزيداً من التقدم على طريق البحث الطبيعي، وهو تقدم يتسم بسمات أهمها: الإجماع على قبول نتائج الخطوات الكبرى، وتراكم هذه النتائج.

أما في حالة علم النفس فلا وجود لمثل هذه الكيانات المحسوسة لكي يتخذ منها العلماء بداية على درجة لا بأس بها من الصلابة؛ فليس لدينا ما يناظر الخلية في العلوم البيولوجية، ولا ما يناظر عناصر المادة في العلوم الطبيعية.

فماذا لدينا في علم النفس كنقاط انطلاق نبدأ منها لنشق طريقنا، طريق التقدم بهذا العلم؟ لدينا ظواهر سلوكية مركبة لا بد من البدء بها، أي أنها مفروضة علينا كنقطة بداية، ويبدو هذا واضحا سواء نظرنا في الأمر من وجهة نظر تاريخية، أو نظرنا من زاوية تشريحية. فبالرجوع إلى تاريخ علم النفس بصورته الحديثة نجد بدايات ميلاد العلم تتمثل في التجارب التي كان يجريها فيبر E. H. Weber في معمل الفيزيولوجيا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وكان يحسب أنه يجري تجارب فيزيولوجية، ولكنها كانت تجارب غير تقليدية بالنسبة لعالم الفيزيولوجيا، لأنها كانت تتخطى مستوى التجريب على ما يطرأ من تغيرات على نسيج حي بعينه أو على مجموعة من الخلايا نتيجة التعرض لمؤثرات خارجية محددة، كانت تتخطى ذلك إلى دراسة ما يطرأ من تغيرات على الكائن الفرد بأكمله نتيجة تعرضه لمنبهات حسية معينة، ومن ثم فقد كان فيبر (دون أن يدري) يخطو بتجاربه الخطوات الأولى في السبيل إلى إقامة فرع الدراسات النفسية الذي عُرف فيما بعد باسم السيكوفيزيقا، أول فروع علم النفس العلمى من حيث النشأة، وهكذا يتحدد منذ البداية موضوع علم النفس بأنه مجموعة من الظواهر أعقد وأشد رهافة من الظواهر موضوع علم الفيزيولوجيا.

وفي هذا الموضع من السياق يحسن أن نكون على علم بتعريف السيكوفيزيقا، فهو يعرف بأنه الدراسة العلمية للعلاقة بين الخصائص الفيزيقية للمنبه والخصائص الكمية للإحساس به (English & English 1958).

ومع أن موضوع الدراسة في هذا الفرع (المبكر في الظهور) يبدو على درجة عالية من التعقد فإن الأمور سارت بعد ذلك في الطريق إلى دراسة ماهو أشد تعقيدا، ففي الربع الأخير من القرن التاسع عشر كان إبنجهاوس H. Ebbinghaus يدرس الذاكرة ويجرى تجاربه الشهيرة لاستخلاص قوانين التذكر والنسيان، وقد

توصل من آلاف التجارب التي أجراها إلى استخلاص المنحنى الأساسي للنسيان،
(ويشار إليه أحياناً بأنه معكوس منحنى التعلم).

وعلى هذا النحو مضى علماء النفس، في تاريخ ممارستهم لتخصصهم، مضوا
يتقدمون نحو دراسة موضوعات بالغة التعقيد أو التركيب، فمع بدايات القرن
العشرين كانوا يدرسون موضوعات مثل الذكاء والشخصية، والتعلم، والتفاعل
بين الأشخاص في المواقف الاجتماعية. الخ. وقد اتضح لهم منذ عرفوا
طريقهم أن موضوعهم هو دراسة السلوك ومصاحباته الخبرية الصادرة عن الفرد
في تفاعلاته مع بيئته بكل مقوماتها الطبيعية والاجتماعية.

عينة من المفاهيم السيكلوجية الشائعة الاستخدام

في إطار هذا التعريف نحاول أن ننظر الآن في عدد من المفاهيم السيكلوجية
لننظر فيما تثيره من مشكلات فلسفية تعيننا.

خذ مثلاً مجموعة المفاهيم السيكلوجية الآتية

الذاكرة memory - الانتباه attention - الإدراك perception - التفكير
thinking .

ثم خذ مجموعة أخرى كالتالية

انطواء introversion - عصاوية neuroticism - اكتئاب depression - تصلب
rigidity .

ثم خذ مجموعة ثالثة ولتكن

ذكاء intelligence - قدرة ability - استعداد aptitude - عادة habit .

وأخيراً خذ مجموعة رابعة ولتكن

تعلم learning - دعم reinforcement - تثبيت consolidation - إطفاء ex-
tinction .

يمكن صياغة السؤال الرئيسي الذي تثيره المقارنة بين هذه المجموعات الأربع من المفاهيم السيكلوجية على النحو الآتى: هل تؤدي هذه المفاهيم وظائف متماثلة فى البناء النظرى الذى يضمها؟ ويلاحظ أننا لا نشير هنا إلى بناء نظرى بعينه من الأبنية المقترنة بأسماء محددة من بين علماء النفس، ولكننا نشير إلى ما يمكن تخيله على أنه بناء نظرى عام يوافق عليه جمهوره علماء النفس الأكاديميين، وذلك لاقتراجه من المستوى الوصفى لوقائع السلوك القابلة للمشاهدة. نعتقد أن الإجابة عن السؤال الذى نحن بصدده واضحة، وهى إجابة بالنفى، هذه المفاهيم لا تؤدي وظائف متماثلة فى البناء النظرى الذى يحتوى عليها. فالمجموعة الأولى تشير إلى عمليات يكاد يجزم عالم النفس بأن لها وجوداً أنطولوجياً ما، وقد اتجهت بعض الجهود فعلاً إلى محاولة تحديد طبيعة هذا الوجود، وفى هذا الصدد نستطيع أن نذكر جهود عدد من العلماء فى تحديد الطبيعة النيوروكيميائية للذاكرة بعيدة المدى، فى مقابل الطبيعة النيوروكهربية للذاكرة قصيرة المدى، كما نذكر عدداً من الدراسات التى تحاول رصد الطبيعة الكهربية لتركيز الانتباه وذلك باستخدام رسام المخ الكهربائى. ومع ذلك فهذه المحاولات وأمثالها ليست جوهر القضية التى نحن بصددها. لكن الجوهر هو مجرد تصور علماء النفس وهم يستخدمون أى مفهوم من المفاهيم التى تندرج تحت المجموعة الأولى أن هذا المفهوم يشير إلى كيان أنطولوجى ما (بغض النظر عن التحقق الإمبريقي من صحة هذا التصور).

فى مقابل ذلك نكاد نجزم بأنه لا يوجد باحث سيكلوجى واحد يتخيل أثناء استخدامه مفردات المجموعة الثانية أن أيّاً منها يشير إلى وظيفة تقوم ككيان محدد له وجود بالمعنى الأنطولوجى. ولكن يغلب على العقل أثناء استخدام مفهوم كالانطواء أننا هنا بصدده بطاقة لفظية تقوم بمهمة الإشارة إلى تجمع بعينه لعدد من الصفات تصف بها الشخصية الإنسانية المنطوية. وكذلك الحال عندما نستخدم مفهوم العصابية أو الاكتئاب أو التصلب. فالفرق الرئيسى إذن بين مفاهيم المجموعة الأولى ومفاهيم المجموعة الثانية فرق فى الحثية الأنطولوجية لمفردات

كل منهما. وقد تنبه كينيث ماكوركوديل وبول ميل (Mac Corquodale & Meehl) (1953) إلى أهمية هذه التفرقة، واستخدما للإشارة إلى طراز المفاهيم الذى ينتمى إلى المجموعة الأولى اسم «الأبنية أو المفاهيم الفرضية»⁽¹⁾، أما طراز مفردات المجموعة الثانية فيطلقان عليه اسم «المتغيرات الوسيطة أو المتوسطة»⁽²⁾.

فإذا انتقلنا إلى المجموعتين الثالثة والرابعة، فنحن لا نستطيع إلا أن نثبت اختلافهما عن المجموعتين الأولى والثانية، كما أنهما يختلفان إحداهما عن الأخرى. فأما الاختلاف فيما بينهما فيتجلى فى أن مفردات المجموعة الثالثة تشير إلى ما يشبه الوظائف بينما تشير مفردات المجموعة الرابعة إلى عمليات تجرى على وظائف. فعملية التعلم تجرى على قدرات أو استعدادات فتزيد من كفاءة الأداء، والدعم عملية تجرى على الآثار المترتبة على التعلم فتزيد من صمودها أمام عوامل التلاشى⁽³⁾، والتثبيت يجرى على مفردات الذاكرة قصيرة المدى فيحيلها تدريجيا إلى أجزاء فى الذاكرة بعيدة المدى، والإطفاء يجرى على بعض العادات فينهى وجودها. هذا عن الاختلاف بين المجموعتين. أما عن التباين بين كل منهما والمجموعتين الأوليين فيتجلى فى كون مفردات المجموعة الثالثة قريبة إلى حد ما من نوع مفردات المجموعة الأولى فى أن كلا من المجموعتين يشير إلى وظائف سيكولوجية لعملية بعينها اسمها الذكاء، أو عملية اسمها القدرة، أو الاستعداد، أو العادة. وهنا ندرك وجه الاختلاف بين هذه المفردات وتلك التى تحتويها المجموعة الأولى. كذلك مفردات المجموعة الرابعة يبدو عليها قدر من التشابه مع مفردات المجموعتين الأولى والثانية ولكن يصعب علينا القول بتطابق فى هذا الصدد سواء مع الفئة الأولى أو مع الفئة الثانية، فنحن نشعر أن كينونتها الأنطولوجية أقل قليلا من كينونة مفردات الفئة الأولى، ولكنها فى الوقت نفسه أكثر قليلا مما يتوفر لمفردات الفئة الثانية.

(1) hypothetical constructs.

(2) intervening variables

(3) dissipation.

ولا جدال فى أن هذه التفرقات التى ذكرناها بين فئات مختلفة من المفاهيم السيكولوجية يمكن أن تضاف إليها تفرقات أخرى إذا نحن عُنينا بالنظر فى عينة من المفاهيم أكبر من الستة عشر مفهوما التى احتوتها مجموعات المقارنة الأربع. ونظرا لأننا لا نملك إطارا نظريا لصياغة هذه التفرقة أفضل مما يقدمه ما كوركوديل وميل فسنقبل هذا الإطار مؤقتا ونقول إننا هنا بصدد مظاهر متعددة للتفرقة بين مفاهيم هى أبنية فرضية، ومفاهيم أخرى هى متغيرات متوسطة، على أن نتصور هذين القطبين للتصنيف على أنهما قطبان على تدرج متصل، وأن المفاهيم السيكولوجية المختلفة التى تملأ عالم الدراسات النفسية تشغل مواقع مختلفة على هذا التدرج اقترابا من أحد القطبين وابتعادا عن الآخر.

وعلى ضوء هذا العرض يتضح جانب من الصعوبات الكبيرة التى تواجه علماء النفس فى عملهم. وهى صعوبات قد تبدو للنظرة السطحية محدودة الوزن، ولكنها فى حقيقتها بالغة الأثر، لأنها صعوبات تمس الإطار الإستمولوجى الذى يتحرك عالم النفس فى نطاقه سواء أكان على وعى بذلك أم لم يكن.

النقطة الأساسية فيما يواجهه علماء النفس من صعوبات بشأن المفاهيم

يتعرض علماء النفس للمعاناة المنهجية فى تعاملهم مع المفاهيم عند موضعين على طريق تقدمهم؛ الموضع الأول عندما يحتاجون إلى مفهوم جديد لأن مجموعة المفاهيم المتوفرة فعلا لا تفى بالغرض. والموضع الثانى عندما يتقدمون نحو تعريف هذا المفهوم الجديد. وتاريخ علم النفس ملئ بالأمثلة على هذه المعاناة.

نضرب مثلا على ذلك نستمد من تاريخ البحوث التجريبية فى الشخصية؛ أجرى كورت ليفين K. Lewin فى أوائل الثلاثينيات مجموعة من الدراسات التجريبية الهامة فى حقل الشخصية؛ وقد كشفت له هذه الدراسات عن عدد من الظواهر السيكولوجية اضطرت له لكى يستطيع أن يمسك بها ذهنيا، حتى يمكن له أن يعالجها المعالجة النظرية اللازمة، اضطرت له إلى أن يسك مصطلحا جديدا للدلالة

عليها، هو مصطلح «التصلب»^(١) (Lewin 1935) وقد اكتفى حينئذ بأن أورد إشارات محدودة يوضح بها ماذا يقصد بهذا المصطلح، وهى إشارات لا تخرج عن حدود الظواهر التى من أجلها ابتكر هذا المصطلح. ثم انتقل المصطلح إلى يد باحث من تلاميذ ليفين هو چاكوب كونين (J. S. Kounin 1943) الذى استخدمه للإشارة إلى مجموعة من الظواهر السلوكية التى كشفت عنها دراساته التجريبية للارتقاء العقلى للأطفال. ولم تلبث الجهود البحثية التى استخدمت هذا المصطلح أن تزايدت بصورة ملحوظة فى الخمسينيات. نذكر فى هذا الصدد على سبيل المثال جهود إينزورث (Ainsworth 1953)، وفيشر (Fisher 1950)، وفرنش (French 1955) وفورستر (Forster et al. 1955) وجودشتاين (Goodstein 1953) وغيرهم.

ولا شك أن هذا التزايد يشير، فى بعض جوانبه، إلى أن الباحثين توسموا فى هذا المصطلح الجديد (حينئذ) أنه يؤدى بعض الوظائف المعرفية الهامة بالنسبة لهم، وهى: (أ) أنه يمكنهم من النظر إلى الواقع من زاوية جديدة. (ب) أنه يمكنهم من الاستنتاج أو الاستنباط، ومن ثم يستطيعون أن يضعوا الخطط لإجراء تجارب لامتحان كثير من القضايا التى لم يكونوا يستطيعون امتحانها. (ج) أنه يمكنهم من العزل التصورى لبعض جوانب الواقع، وهذا بدوره يمكنهم من تركيز بحوثهم فى هذه الجوانب دون سواها (سويف ١٩٥٤).

غير أن هذا التزايد نفسه الذى كان عنوان انطلاق طاقة الباحثين بعد عبورهم موقع المعاناة الأولى (وجود ظواهر لا تقع تحت بطاقة للتسمية) هو نفسه الذى وصل بهم مع أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات إلى وضع المعاناة الثانية؛ إذ بدأوا يشعرون بأنه أن الأوان للوقوف عند المفهوم الكامن وراء المصطلح ومحاولة تعريفه تعريفا دقيقا، وذلك لكثرة ما بدا من خلافات بين نتائج أعمال الباحثين المختلفين التى كانت تصل أحيانا إلى ما يقرب من التعارض مع أنهم يستخدمون مصطلحا واحدا وكان المتوقع منطقيا أن ينتهوا إلى نتائج متكاملة (Leach 1970; Nigniewitzky 1955).

(1) rigidity.

هذا التاريخ الذى تمثله مسيرة مفهوم «التصلب» من خلال جهود الباحثين (منذ أواسط الثلاثينيات إلى أواخر الخمسينيات) ليس حدثا فريدا فى تاريخ علم النفس الحديث، ولكنه حدث متكرر، وقد تكرر بالنمط نفسه تقريبا عددا من المرات مع مفاهيم أخرى، ربما كان من أكثرها بروزا فى ذاكرة الباحثين ما حدث بالنسبة لمفهومى «الغرائز»، والانطواء».

مواجهة الأزمة

يواجه علماء النفس هذا النوع من الأحداث كما يواجه أمثالها سائر العلماء، فيتوقفون عن مواصلة السير فى متابعة موضوع البحوث التى يجرونها ليعيدوا النظر فى مدى صلاحية المفاهيم التى يستخدمونها كأدوات للقيام بهذه البحوث.

ولعلماء النفس فى هذا الصدد، أى فى إعادة النظر هذه، طريقتان إحداهما إمبريقية إلى حد كبير، والأخرى نظرية تقترب بهم درجات نحو التفلسف.

أما الطريقة الإمبريقية فتعتمد (فى أوضح صورها) على استخدام أسلوب التحليل العاملى فى الكشف عن حجم المقام المشترك بين الاستعمالات المتعددة للمفهوم (موضع الحيرة) عند الباحثين المختلفين، ومحاولة تحديد الهوية السيكولوجية لهذه الأرض المشتركة. ويعتمد أسلوب التحليل العاملى على القيام بسلسلة من التحليلات الإحصائية يتوصل بها الباحث إلى تقديرات كمية لحجم الاقتران أو الارتباط القائم بين المقاييس المختلفة التى تقيس مدى توفر الخاصية السيكولوجية التى يشير إليها المفهوم فى عينة كبيرة من الأفراد، ثم تجمع تقديرات الاقتران المتعددة فى شكل مصفوفة تُجرى عليها عمليات إحصائية أخرى هى إجراءات التحليل العاملى بالمعنى الدقيق. وتوجد عدة طرق لإجراء التحليل العاملى تتفاوت فيما بينها من حيث الكفاءة فى أداء المهمة المطلوبة (Thomson 1951; Comrey 1978).

وجدير بالذكر أن هذه الطريقة الإمبريقية يمكن أن تقلل من حدة الأزمة التى تواجهها بعض المفاهيم السيكولوجية فى مسارها عبر جهود الباحثين المختلفين؛

وقد حققت ذلك فعلا فى بعض الحالات بصورة إيجابية، والمثال الواضح على ذلك مفهوم الذكاء. كما نجحت فى أداء المهمة بصورة سلبية فى حالة بعض مفاهيم الطب النفسى؛ (مفهوم الفصام مثلا Schizophrenia). غير أن ما تستطيع أن تحققه هذه الطريقة يظل دائما دون المطلوب، لأسباب عدة يأتى فى مقدمتها أن الباحث لا يستطيع أن يخرج من التحليل العاملى بأكثر مما أدخل فيه (من حيث المضمون المفهومى الذى شاع استعماله بين الباحثين)؛ ومن هنا قولنا بأنه تكنيك رياضى لتحديد المقام المشترك بين الاستعمالات الشائعة المختلفة فماذا لو أن هذه الاستعمالات الشائعة تحتاج إلى امتحان أشد حسما من مجرد تقدير درجة التطابق أو التداخل فيما بينها؟ هذا أمر لا يقوى عليه التحليل العاملى. ولا يعنى ذلك أى عيب فيه كأسلوب من أساليب البحث، ولكنه يعنى أننا إذا طلبنا منه ذلك كنا نطالبه بما هو خارج عن طبيعته.

هنا يبدو بوضوح أن الاقتراب الإمبريقي من المشكلة لن يصل بنا إلى التغلب عليها، ولا بد إذن من طريق آخر، وفى هذا المقام يكون هو طريق التفكير النظرى فى تعريف المفاهيم.

تعريف المفاهيم بنظرة فلسفية

لابد من العودة هنا إلى أواخر القرن التاسع عشر لنزوى فضلا من أهم الفصول فى تاريخ العلم، وفى تاريخ فلسفة العلوم، ففي سنة ١٩٠٠ كان اللورد كلفين Lord Kelvin يعلن على مشهد من رجال المعهد الملكى البريطانى أن علم الطبيعة أوشك على أن يتم رسالته الأكاديمية، وأنه لم يبق أمامه سوى مهمتين محدودتين، إحداهما حل مشكلة الإشعاعات الصادرة عن الجسم الأسود^(١)، والأخرى مشكلة تجربة ميكلسون ومورلى التى أجريت فى سنة ١٨٨٧، وما أسفرت عنه من نتائج محيرة بعض الشيء (Asimov 1965).

غير أنه بعد بضع سنوات من صدور هذا الإعلان حدث ما لم يكن فى

(1) the black - body radiation.

الحسبان؛ فقد قدم ألبرت أينشتاين Albert Einstein نظريته فى النسبية، واكتشف ما كس بلانك Max Planck أن الإشعاعات الكهربائية المغنطيسية (أو الكهرومغناطيسية) الصادرة عن الجسم الأسود يلائمها نموذج الدالة الاحتمالية أفضل من الدالة الحتمية، واضعا بذلك المبدأ الأساسى لفيزيقا الكم^(١). وكان جامع الخطورة بين هذين الحداث هو أنهما ينقضان جوانب هامة فى إطار الفكر العلمى النيوتونى. فإذا أدخلنا فى اعتبارنا أن هذا الفكر ظل إطارا مرجعيا للفكر العلمى بأسره طوال ما يقرب من مائتين وثلاثين عاما أدركنا عمق الشعور بالأزمة الذى انتاب العلماء والفلاسفة نتيجة لوقوع هذين الحداث: النظرية النسبية، و فيزيقا الكم. وقد تبلورت الأزمة فى سؤال رئيسى أصبح يفرض نفسه على الجميع، مؤداه: كيف أمكن للعلماء أن يظلوا على هذا الخطأ فيما يتعلق بطبيعة الكون طوال هذه المدة؟ وشيئا فشيئا أخذت الإجابات تتجمع وتتلور فى اتجاه أن الخطأ يرجع إلى تسرب عناصر «ميتافيزيقية» إلى مسلمات الفكر الفيزيقي، وأن هذا التسرب حدث على غفلة من الجميع. أشاعت هذه الأحداث جوا أقرب إلى التفلسف، يتميز أساسا بالتوجه نحو الامتحان النقدى لجوانب الفكر العلمى المختلفة. وتحت وطأة هذا الجوى يروى بيرسى بريد جمان P. W. Bridgman (وقد عاش من ١٨٨٢ - ١٩٦١ وحصل على جائزة نوبل سنة ١٩٤٦) أنه قضى عشر سنوات يتأمل فى حقيقة ما يجرى من أحداث فى فروع علم الطبيعة، وفى أساس الفكر الطبيعى، وقد ظهرت نتائج هذه التأملات على مراحل، أهمها ما ظهر فى كتاب له نشر سنة ١٩٢٢ بعنوان «تحليل الأبعاد Dimensional analysis»، ثم فى كتابه «منطق علم الطبيعة الحديث» "The Logic of modern physics" سنة ١٩٢٧، ثم فى كتاب ثالث بعنوان «طبيعة النظرية الفيزيقية» "The nature of physical theory" نشر سنة ١٩٣٦، ثم فى كتاب رابع بعنوان «تأملات عالم طبيعة» "Reflections of a physicist" نشر سنة ١٩٥٠، ثم فى كتاب خامس بعنوان «طبيعة بعض مفاهيمنا الفيزيقية» "The nature of some of our physical concepts" نشر سنة ١٩٥٢.

(1) quantum physics.

وتحت وطأة هذا الجو أيضا حددت فلسفة العلوم توجهها الحديث الذى يتلخص فى امتحان الأسس التى يستند إليها العلم كمنظومة عقلانية.

ترك الآن عملية التأريخ للنظر فى الكيفية الفلسفية التى عولجت بها أزمة علم الطبيعة. قلنا منذ قليل إن الجهود أخذت تتجمع شيئاً فشيئاً وتتلور فى اتجاه القول بأن الخطأ الأساسى فى علم الطبيعة يرجع إلى أنه حدث تسرب، على غفلة من الجميع، لعناصر «ميتافيزيقية» إلى مسلّمات الفكر الطبيعى النيوتونى. وفى سبيل الإعداد لكيلا يتكرر هذا الطراز من الخطأ مرة أخرى قال بريدجمان فى أكثر من موضع فى كتابه «منطق علم الطبيعة الحديث» الصادر سنة ١٩٢٧ ما معناه إن توجهه الرئيسى هو استئصال المفاهيم المجردة وذلك بربطها تماماً بمجموعة العمليات أو الإجراءات اللازمة لقياسها. وجاء فى كتابه المذكور ما نصه: «إن ما نعنيه بأى مفهوم لايزيد على مجموعة من الإجراءات؛ وعلى ذلك فالمفهوم مرادف لمجموع الإجراءات المتعلقة به». (وقد وردت العبارة الأخيرة بالخط المائل فى كتابه). وقد أورد بريدجمان فى كتابه نصاً من كتاب نيوتن «المبادئ- Principia» اعتبره بما يحتوى عليه من تعريف لمفهوم «الزمن» المطلق، اعتبره نموذجاً للمفهوم الذى يسمح بتسرب العناصر الميتافيزيقية التى تؤدى فيما بعد إلى أخطاء جسيمة. فى هذا النص يقول نيوتن ما يلى:

«لا أقصد إلى تعريف الزمان، أو المكان، أو الحركة لأنها أمور معروفة للجميع. كل ما ألاحظه هو أن العامة لا يدركون هذه المقادير إلا من حيث علاقتها بالأشياء المحسوسة. ومن هنا تنشأ أخطاء يكفى لتصحيحها أن نفرق فى هذه المقادير بين المطلق والنسبى، والحقيقى فى مقابل الظاهرى، والرياضى فى مقابل العام.

فالزمان المطلق، والحقيقى والرياضى، هو فى ذاته وبحكم طبيعته ينسال بتجانس دون اعتبار لأى شئ خارجى، ويعرف إذ ذاك باسم آخر هو الديمومة»^(١).

(1) duration.

ويعلق بريدجمان على هذا النص بقوله، « . . فإذا نحن امتحنا هذا التعريف للزمان المطلق في ضوء التجربة فلن نجد في الطبيعة شيئا يحمل الخصائص المذكورة». ثم يستطرد قائلا: «أما الاتجاه الجديد نحو المفهوم فيختلف عن ذلك تماما». ويتجه شرح بريدجمان بعد ذلك إلى بيان كيف أن جوهر الخطأ هنا هو تعريف المفاهيم عن طريق خصائصها، في حين أن الصواب هو في تعريفها عن طريق الإجراءات اللازمة لقياسها. ولكي يزيد من وضوح تصويبه في هذا الصدد يضرب بريدجمان مثلا بمفهوم الطول⁽¹⁾؛ فيقول إن مفهوم الطول يتحدد بالعمليات اللازمة لقياسه، وهو ما يعنى أن هذا المفهوم يحوى في نفسه ما تنطوى عليه عمليات قياسه، ولا شئ أكثر من ذلك. ثم يعود بعد قوله هذا، فيقرر أننا إذا طبقنا فكرتنا هذه على مفهوم الزمان المطلق فسنجدنا عاجزين عن فهم معنى الزمان المطلق ما لم نقرر كيف نحدد الزمان المطلق لأى حدث بعينه، بعبارة أخرى ما لم نستطع أن نقيس الزمان المطلق. ومع ذلك فنحن إذا نظرنا فى أية عمليات يمكن استخدامها لقياس الزمن فسنجدها جميعا عمليات نسبية، وهو ما يعنى فى نهاية المطاف أن عبارة الزمان المطلق لا معنى لها. ولكي يزيد بريدجمان من دعم موقفه النظرى عرض للأسلوب الذى تعامل به ألبرت أينشتاين مع مفهوم «التآنى»⁽²⁾، ثم قال هكذا ينبغى لنا أن نتعامل مع المفاهيم جميعا، فالتعريف الصحيح لها لا يكون عن طريق وصف خصائصها ولكن عن طريق الإفصاح عن العمليات الفعلية اللازمة لرصدها أو قياسها.

على هذا النحو بلور بريدجمان موقفه الفلسفى من مشكلة تعريف المفاهيم فى كتابه الصادر سنة ١٩٢٧. ولم تلبث نظرته هذه أن انتقلت إلى صفوف علماء النفس لتبتناها أعداد متزايدة من بينهم مع أوائل الثلاثينيات. وهنا نتوقف قليلا لتبين كيف تم هذا الانتقال، فنحن هنا أمام نموذج تاريخى نادر للكيفية التى يتم بها تبادل الأفكار والخبرات عبر أسوار المنظومات العلمية المختلفة.

(1) length.

(2) simultaneity.

مشكلة البناء النظري للعلم كما واجهها علماء النفس

تروى لنا كتب تاريخ علم النفس كيف أن طموح المشتغلين به ارتفع بدرجة ملحوظة مع بدايات القرن العشرين، وجاء هذا كامتداد طبيعي للنجاح الذى حققته البحوث الإمبريقية التى أُجريت على طول النصف الأخير من القرن التاسع عشر بفضل العلماء الكبار من أمثال فخرن G. T. Fechner وهلمهولتز H. L. F. Helmholtz ، ثم فونت W. Wundt وإبنجهاوس (H. Ebbinghaus Boring) . (1957).

وقد بدا هذا الطموح جليا فى المحاولات المتعددة النشطة التى انطلقت منذ أواخر العقد الأول وأوائل الثانى من القرن العشرين تبلور مواقف نظرية تشبه أن تكون برامج ترسم لعلماء النفس خطوط التقدم التى يلزمهم أن يسيروا عليها لينجزوا مشروع العلم بكامله. وفى تاريخ علم النفس أنه أطلق على هذه المواقف اسم المدرسة؛ ومن أشهر هذه المدارس: السلوكية^(١)، والجشطلت^(٢)، والتحليل النفسى^(٣). ولكن هذا النشاط نفسه لم يلبث أن أدى إلى شعور جمهرة علماء النفس بأن علمهم يعيش أزمة لا يستهان بها؛ وكان من أوضح مظاهر هذه الأزمة فى نظرهم أن جهودهم لا تؤدى إلى نمو تراكمى للمعرفة السيكولوجية. وأشاع هذا الشعور بالأزمة جوا من البحث والجدل واسع النطاق حول الأسباب الكامنة وراء الأزمة.

على هذا النحو توازت الأزماتان، أزمة علماء الطبيعة، وأزمة علماء النفس. ورغم ما كان بينهما من اختلاف فى المضمون، وفى الظروف التاريخية التى أدت إلى نشوب كل منهما، فقد بدا أن هناك سؤالا رئيسيا واحدا وراءهما، وهو: كيف نُحكّم التنظير ليأتى على قد المشاهدة؟ أو كيف تصاغ العلاقة بين البناء النظرى وجسم الواقع؟

(1) behaviourism.

(2) gestalt psychology.

(3) psychoanalysis.

ومع ذلك فالفارقة التاريخية اللافتة للنظر أنه رغم وجود اثنين من علماء النفس (وكان اسم كل منهما قد بدأ يلمع فى ذلك التاريخ المبكر نسبيا) هما بورنج وستيفنز فى الجامعة نفسها التى كان بريدمان يعمل بها، جامعة هارفارد، فلم يحدث أى اتصال بين الطرفين إلى أن جاء طرف ثالث من جامعة أخرى ومن دولة أخرى ليحدث الاتصال الذى ترتبت عليه نتائج خطيرة.

كان هذا الطرف الثالث هو هربرت فايجل H. Feigl، واحد من أبرز الأسماء فى حركة الفلسفة الوضعية المنطقية. كان هربرت فايجل (ولد سنة ١٩٠٢) مواطنا نمساويا، وقد حصل على الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة فيينا سنة ١٩٢٧؛ وبقى فى فيينا للتدريس حتى سنة ١٩٣٠. وكان فى هذه الأثناء على دراية بكتاب بريدمان المنشور سنة ١٩٢٧. وفى سنة ١٩٣٠ رحل إلى هارفارد على منحة دراسية ليتصل عن قرب ببريدجمان، وليعمل فى حقل فلسفة العلوم. وفى هارفارد كان هو الذى قدم عالمى النفس بورنج وستيفنز إلى أفكار زميلهما بريدمان. كما قدمهما إلى الوضعية المنطقية وإلى فكرة العمليات الإجرائية بوجه عام.

ويروى بورنج (أحد شهود العيان) أن مصطلح الإجرائية^(١). بدأ يحتل اهتمامه هو والزملاء فى أحاديثهم ومناقشاتهم العابرة. وفى أبريل سنة ١٩٣٥ أخذ ستيفنز زمام المبادرة فنشر مقالا فى هذا الموضوع أتبعه بمقال آخر فى نوفمبر من العام نفسه. وفى سنة ١٩٣٦ نشر تولمان E. C. Tolman مقالا فى التحليل الإجرائى للحاجات. وفى سنة ١٩٣٩ نشر ستيفنز مقالا بعنوان «السيكولوجيا وعلم العلم». وواضح من مجريات هذا التيار أن الثلاثينيات شهدت اهتماما لم يلبث أن تحول إلى حماس «للإجرائية» بين أعداد متزايدة من علماء النفس (Bridgman 1953).

(1) operationism.

كيف أفاد علماء النفس من «الإجرائية» فى أبنيتهم النظرية

١- يقول بورنج إن بعض ما قدمه بريدجمان لم يكن جديدا تماما على جميع علماء النفس؛ فقولُه بأن الخبرة الشعورية الخاصة لا معنى لها بالنسبة للعلم، ليس أمرا جديدا بالنسبة لبعض علماء النفس الذين رأوا أن عملية الاستبطان لن يكون لها قيمة علمية ما لم تحدد لها معالم «عامّة» public. ومن هذا القبيل ماكس ماير M. Meyer وتولمان. ومع ذلك فقد كان لكلمة بريدجمان وزن إضافي فى الموقف لأنه ينطق بصوت علم الطبيعة الذى ينظر إليه علماء النفس كمثّل أعلى لانضباط العلم وتقدمه.

كذلك مجموعة العلماء الذين اهتموا بدراسة سلوك الحيوان كانوا فى الواقع يطبقون قواعد «الإجرائية»، وكذلك السلوكيون من أتباع واطسون، وبالمثل كان سكرنر، وذلك من قبل أن يقدمها بريدجمان كتيار له معالمة فى عملية التنظير العلمى.

٢- للتيسير على جمهوره علماء النفس فى مهمتهم أن يتبنوا «الإجرائية» كطريق منهجى قويم حاول ستيفنز أن يستخلص الخصائص الإيجابية للإجرائية، أى ما تفعله، كما حاول أن يستخلص خصائصها السلبية، أى ما لا تفعله.

وجاءت القائمة الإيجابية على النحو الآتى:

أ - تحاول الإجرائية اختزال جميع القضايا التى تقال عن الظواهر (وتسمى القضايا العملية)^(١) بأن تردها إلى مفردات بسيطة تحوز اتفاق الجميع. وهذا محك اجتماعى.

ب - تقتصر الإجرائية على معالجة الأحداث العامة. أما الخبرات الخاصة فمستبعدة.

ج - تقتصر الإجرائية على تناول «الأخر»، شخصا كان أو حيوانا، ولا تتناول المعرب نفسه.

(1) empirical propositions.

د - ومع ذلك فيمكن للمجرب أن ينظر في بعض ما يحدث بداخله، ولكن على أن يتعامل مع نفسه كأنه «آخر»، فلا يقبل باسم العلم إلا ما يمكن إطلاع الآخر عليه، ويسقط ما هو خصوصي.

هـ - الإجرائية لا تعالج إلا القضايا التي يمكن اختبار صدقها أو زيفها حسب الطلب وذلك باللجوء إلى عمليات بعينها.

و - التمييز^(١)، هو العملية الأساسية في العلم. وكل مشاهدة هي في أساسها تمييزية.

ز - يحتفظ العالمُ الإجرائي بفرقة واضحة في تفكيره بين القضايا العملية والقضايا الشكلية^(٢)، حتى يتحاشى خلطا لا آخر له.

وجاءت القائمة السلبية على النحو الآتي :

أ - الإجرائية ليست مدرسة جديدة في علم النفس، الإجرائية أسلوب.

ب - وهي ليست مجموعة من القواعد لإجراء التجارب.

ج - ولا هي حائل يحول دون التأمل والتنظير.

د - ومع ذلك فهي لا تقدم ضمانا للاتفاق بين الجميع.

هـ - والإجرائية ليست «الوضعية الخبرية»^(٣) التي قدمها ماخ.

و - كما أنها ليست السلوكية التي تستبعد الصور الذهنية أو أى معطيات أخرى. فجميع الكيانات الذهنية يمكن إدخالها في الاعتبار ولكن من خلال العمليات اللازمة لمشاهدتها.

ز - والإجرائية ليست نوعا من «الواحدية»^(٤).

(1) discrimination.

(2) formal propositions.

(3) experiential positivism.

(4) monism.

ح - ولا هى نوع من الثنائية .

ط - ولا هى تعددية^(١) .

على ضوء هذه البنود حاول ستيفنز أن يسهّل على زملائه مهمة تبني الإجرائية التى كان يدعوهم إليها .

٣- مع بداية الثلاثينيات ساد توجه معين فى علم النفس لم يستوح مباشرة تيار الإجرائية كما قدمه بريدجمان ، ولكنه استوحى الخلفية الفلسفية التى تستوعبه ، وأعنى بها الوضعية المنطقية . تمثل هذا التيار أول ما تمثل فى جهود كلارك هل C. Hull التنظيرية . وقد عُرف هذا العالم بدفاعه عن المنهج الفرضى الاستدلالي^(٢) فى بناء النظرية (Hilgard 1956; Koch 1992) . وانخرط فى هذا التيار بعد هل عدد من علماء النفس من أشهرهم هانز أيزنك H. Eysenck و كينيث سبنس K. Spense . وفى هذا الإطار سار تعريف المفاهيم فى اتجاه يختلف بعض الشيء عن الصورة التى ارتبطت باسم بريدجمان كما قدمه فى سنة ١٩٢٧ . فالإطار الجديد يستوجب التفرقة بين نوعين من المتغيرات : (أ) متغيرات طرفية ، وتقع تحتها المتغيرات المستقلة ، والمتغيرات التابعة . (ب) وفى المقابل متغيرات وسيطة ، وهى التى تقع بين المستقلة والتابعة . ويستلزم الإطار أن يلتزم الباحث بما يشبه قيد الإجرائية بالنسبة لتعريف المتغيرات الطرفية ، أما بالنسبة للمتغيرات الوسيطة فشرط الإجرائية فى التعريف غير ملزم (Spence 1953) . مثال ذلك : المتغير المستقل فى إحدى التجارب هو عدد من الكلمات يلقى على مسمع من شخص (المتطوع للتجربة) ، والمتغير التابع الذى نرصده هو حجم التسميع . فى هذه التجربة يجب علينا أن نحدد كل ما يمكن من إجراءات لتعريف المتبّه (الذى هو الكلمات) ، كما يجب تحديد الإجراءات اللازمة للتحديد التام لاستجابة التسميع . أما المتغيرات المتوسطة بين هذين الطرفين ، كأن نتكلم عن «مرحلة للتسجيل» و «مرحلة للتخزين» ومرحلة «للاستعادة» . الخ فالشرط الرئيسى بالنسبة لها هو أن تسمح

(1) pluralism.

(2) hypothetico - deductive method.

كسلسلة من الحلقات المترابطة بالوصول إلى صياغة علاقة كمية منتظمة بين المتغير المستقل في البداية والمتغير التابع في النهاية. فإذا سمحت بتحقيق هذا الشرط اعتبرت (في مجموعها) محدّدة بما فيه الكفاية ولا يُشترط أن تُنفرد كل حلقة بتعريف إجرائي خاص بها.

٤- ندوة سنة ١٩٤٥

في سنة ١٩٤٥ دعت مجلة Psychological Review (إحدى الدوريات الرئيسية التي تصدر عن الجمعية الأمريكية لعلم النفس) إلى إقامة ندوة تحت رعايتها حول موضوع الإجرائية. وقد وضع رئيس التحرير لانجفيلد H. S. Langfeld أحد عشر سؤالاً تتناول ما اعتبره مواطن التعمق التي تحتاج إلى إيضاح فيما يتعلق بالإجرائية. وقد وجه هذه الأسئلة إلى ستة من أهم الأسماء التي شاركت في تيار الجدل الذي دار حول الموضوع في الثلاثينيات، هؤلاء هم: بورنج، وبريدجمان نفسه، وفايجل، وهارولد إيزرائيل H. E. Israel، وبرات C. Pratt، وسكنر. وفيما يلي نص الأسئلة:

١- (أ) ما هو الغرض من التعريفات الإجرائية؟

ومتى يلزم اللجوء إليها؟

(ب) من الناحية المنطقية قد تقوم التعريفات الإجرائية كخطوات تراجعية لا آخر لها. فكيف يمكن الحد من هذا التراجع أثناء الممارسة العملية؟

٢- إذا ما حدث أن عُرّف المفهوم الواحد عن طريق عمليتين أو إجراءين، فهل يجب القول عندئذ إننا بصدد مفهومين لا مفهوم واحد؟

٣- (أ) هل الإجراءات الافتراضية التي يستحيل تنفيذها فيزيقياً بالأساليب المتاحة، هل لهذه الإجراءات قيمة علمية؟

(ب) هل توجد أية فائدة للإجراءات الافتراضية التي من شأنها أن تعرّف مفاهيم لا وجود لها في الوقت الحاضر (مثال ذلك تعريف لون لا نراه)؟

(ج) هل توجد أية فائدة لإجراءات افتراضية لا يمكن أداؤها (مثل ذلك مفهوم اللانهاية)؟

٤- هل الخبرة مفهوم صالح للتعريف الإجرائي؟

٥- هل توجد إجراءات جيدة وأخرى سيئة علميا، وكيف يكون تقويم الإجراءات إذا كانت تتفاوت في قيمتها؟

٦- هل تزيد الإجرائية على أن تكون تأكيدا مصقولا ومجدداً للمنهج التجريبي (كما سبق وأن فهمه جاليليو، بل وأرشميدس)؟

٧- هل يلزم الإجرائيين من بين علماء النفس أن يزيحوا التنظير من أى نوع كان ليلحقوه بالميتافيزيقا؟

٨- ما معنى الكلام عن تحسين بعض الاختبارات أو مراجعتها إذا لم تكن هناك محكات خارج أسلوب الاختبار الذى وقع عليه الاختيار؟

٩- هل كل التعريفات المشروعة علميا إجرائية؟

١٠- ما هو التعريف، إجرائيا كان أو غير إجرائي.

١١- هل يمكن تحديد هوية ظاهرة ما، أو تعريف خصائصها فى حدود الأحداث (أى الإجراءات) التى تستحدث الظاهرة، أو ترتب عليها؟

تلك كانت الأسئلة. وجدير بالذكر أن الإجابات عليها جاءت متباينة إلى حد كبير. وقد علّق روجرز T. B. Rogers على هذه الحقيقة التى فاجأت الكثيرين تعليقا جاء متأخرا ما يقرب من خمسة وأربعين عاما، قال كانت هناك أصناف متعددة من الإجراءات طوال الثلاثينيات والأربعينيات (Green 1992).

تبرؤ بريدجمان من الإجرائية بعد ذلك

بقى بريدجمان شاهدا عن قرب لما يجرى بين علماء النفس رغم انشغاله بأمور تخصصه فى مجال فيزيقا الضغوط العالية. ويبدو أن ميوله الفلسفية كانت هى

السبب فى إبقائه على هذه الصلة . ولكن يبدو أن النتائج التى أسفرت عنها ندوة سنة ١٩٤٥ كانت صادمة له بما فيه الكفاية ومن ثم فقد أعلن فى سنة ١٩٥٤ فى مقال نشر فى مجلة Scientific Monthly تبرؤه من الإجرائية . إذ قال ما نصه : «أشعر كأنى خلقت فرانكنشتاين، ومن المؤكد أن أمره قد خرج من يدي . إنى أمقت كلمة «الإجرائية» إذ تبدو منطوية على عقيدة جامدة» . . .

كذلك أعلن عدد من كبار علماء النفس ، فى أواخر الخمسينيات انصرافهم عنها كاستراتيجية بحثية فيما يتعلق بتعريف المفاهيم . وفى مقدمة هؤلاء إدوارد تولمان ، وإيجون برونجفيك E. Brunswick ، وريموند كاتل R. B. Cattell ، وإدوين جوثرى E. Guthrie ، ونيل ميللر N. Miller ، وقد أورد إعلانهم هذا سيجموند كوش S. Koch فى دراسته التى أجراها بتكليف من الجمعية الأمريكية لعلم النفس ، وأكمل نشرها سنة ١٩٥٩ بعنوان : Psychology: A study of a science .

التمادي فى الدعوة للإجرائية

نشير بمفهوم التمادي^(١) إلى ظاهرة سلوكية مؤداها استمرار صدور سلوك معين عن الكائن رغم انقضاء المبررات الموضوعية لصدور هذا السلوك أصلاً . وهذا بالضبط ما نشهده حتى الآن بشأن الدعوة للإجرائية فى كتابات النسبة الغالبة من المشتغلين بعلم النفس فى مصر وفى الخارج . ومن أمثال هؤلاء أندروود B. J. Underwood وباكراك A. J. Bachrach ، وكيرلنجر F. N. Kerlinger ، وكريستينسن L. B. Christensen ، وجريجورى كيمبل G. Kimble . وفى رأينا أن سببا رئيسيا وراء هذا التمادي هو انصراف جمهرة علماء النفس (محليا وعالميا) عن الاطلاع المتأنى على تاريخ علمهم وتمثل دروسه ، مع نقص ملحوظ فى التدريب على الفكر الفلسفى بوجه عام ، وعلى المنطق بوجه خاص ، مع ميل عام (لا يخطئه الراصد) إلى الاتباعية على حساب الإبداعية بين أعداد كبيرة من المشتغلين بعلم النفس .

(1) perseverance.

محور الخطأ في تاريخ علم النفس مع الإجرائية

يبدو للمدقق في تاريخ تعامل علماء النفس مع دعوى الإجرائية أن هذا التاريخ مر بعدة مراحل؛ فهناك أولاً مرحلة الاكتشاف المبكر، وذلك في أوائل الثلاثينيات عند بدء التعاون بين مجموعة هارفارد وبريدجمان بوساطة فايجل. ثم هناك مرحلة اشتعال الحماس في أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات، ومع اشتعال الحماس وكثرة الكتابات بدأت المسألة تتكشف عن خلافات لا يمكن تجاهلها مما دعا إلى إقامة الندوة التاريخية الحاسمة في سنة ١٩٤٥، وهي الندوة التي أوضحت أن الخلافات أعمق من أن تساعد على اعتبار «الإجرائية» إشعاعاً يضيء الطريق أمام الباحثين. ونظراً لأن علماء النفس لم يجدوا أمامهم بديلاً على درجة معقولة من التبلور يتحولون إليه بأسئلتهم فقد بقيت الإجرائية معهم، شعاعاً يخيلهم دون أن يترتب عليه برنامج عمل محدد المعالم. هذا عن المراحل. وقد انطوت هذه الرحلة على أخطاء متعددة. تدور جميعاً حول التقبل غير النقدي لنموذج بعينه من التحليل النظري للتفكير العلمى قدمه صاحبه في وقت مبكر من مسيرته العلمية، (سنة ١٩٢٧) ثم لم يتوقف عن إدخال مزيد من التعديلات عليه حتى أوائل الستينيات، لكن جمهرة علماء النفس (لأسباب بشرية لا آخر لها) لم يكتفوا بالتقبل غير النقدي الذي بدأوا به بل جمعوا إلى ذلك التوقف عند النموذج في صورته المبكرة غير الناضجة ولم يتابعوا ما صدر عن بريدجمان نفسه من كتابات لاحقة مليئة بالتعديلات.

الطريق إلى تصويب المسيرة

قبل أن نختم هذا المقال نرى لزاماً علينا أن نشير إلى ما نتوسم أن يكون بداية الطريق السليم إلى تعريف المفاهيم السيكلوجية، وسوف نكتفى بتحديد هذه البداية في هذا المقام.

أ - نقطة البدء تتمثل في رفض القضية التي قررها بريدجمان بقوله «إن المفهوم مرادف لمجموعة الإجراءات المتعلقة به». وكذلك لا بد من رفض القضية

المناظرة التي قالها بعض علماء النفس، «إن المقصود بالذكاء هو ما تقيسه مقاييس الذكاء».

ب - مع هذا الرفض ينبغي أن يكون واضحاً أن مفهوم الذكاء (وكذا مفاهيم سيكولوجية أخرى مماثلة) أوسع (أو أشمل) من إجراءات قياسه. وإلا فكيف نفهم الإجراءات الدائبة في السبيل إلى تحسين المقاييس المتوفرة لدينا؟ لا بد أن يكون في الذهن «بواقي من المفهوم» لم تتوصل مقاييسنا إلى الإمساك بها.

ج - هذه «البواقي» ينبغي الحفاظ على توضيحها أمام ناظرينا، لأنها هي تربط الفرس فيما يتعلق باستمرار تقدم العلم. هذا صحيح لا بالنسبة لمفهوم الذكاء فحسب، ولكن بالنسبة لمعظم المفاهيم التي تتعامل بها في علمنا.

د - رغم الاقتناع المبدئي بما يمكن أن نسميه وحدة الفكر العلمي، فقد يكون خطأ قاتلاً أن يستمد علماء النفس نموذج تقدم يحذون حذوه من مسيرة العلوم الطبيعية. وقد لا يكون هذا خطأ مرحلياً ولكنه خطأ استراتيجي.

هـ - إن الإبقاء على خط التماذي في الإشادة «بالإجرائية» ينطوي على ضرر بالغ بعملية التفكير العلمي نفسها كما يقوم بها علماء النفس إذ يمارسون علمهم. وأبسط ما يقال في هذا الصدد إن إطلاق الشعار يعطل التوجه النقدي نحوه، ويوهم مردديه ومتلقيه بأن مسألة الشروط الإستمولوجية اللازمة لضمان كفاءة المفاهيم مسألة محلولة وما عليهم إلا أن يمتثلوا لمقتضيات الحل.

و - يبدو إن أحد الواجبات التاريخية الملقاة على عاتق أساتذة الفلسفة، وعلماء النفس على حد سواء واجب النظر في حقيقة العلاقة بين العلم وفلسفة العلم، هل ينتظر من فلسفة العلم أن تشرع للعلم، أم تكون مهمتها هي أن تتحرى ما يفعله العلم. وقد يكون من المفيد هنا أن ننظر في حقيقة العلاقة بين الإبداع الفني والنقد الفني (أو فلسفة الجمال) لا لنحاكي هذه العلاقة ولكن لنستخلص بعض الدروس.

ز - هل صحيح أن الوضعية المنطقية تصلح قاعدة عريضة لفلسفة العلم؟
هذه الإشارات السبع، فيما نتصور، قد تكون بداية الطريق إلى صياغة الحل
المقنع لمشكلة تعريف المفاهيم في علم النفس.

المراجع :

Ainsworth, L. H. (1953) - A study of rigidity, Ph. D. thesis, LONDON University.

Asimov, I, (1965) *The new intelligent men's guide to science*, London, Nelson..

Boring, E. (1957) *A history of experimental psychology*, New York: Appleton - Century-Crofts.

Bridgman, P. W. (1953) The logic of modern physics, (originally published as chapter 1 of a book carrying the same title), in *Readings in the philosophy of science* H. Feigl & M. Brodbeck eds. New-York: Appleton - Century-Crofts.

Brodbeck, M. (1953) The nature and function of the philosophy of science, in *Readings in the philosophy of science*, H. Feigl. M. Brodbeck eds., New York. Appleton ` Century - Crofts.

Comrey, A. L. (1978) Common methodological problems in factor analytical studies, *J. Consult. Clin. Psychol.*, 46/4, 648-659.

English, H. B. & English. A. C. (1958) *A comprehensive dictionary of psychological & psychoanalytical terms*, New-York: Longman's.

Fisher, S. (1950) Patterns of Personality rigidity and some of their determinants, *Psychol. Monogr.* 64/1.

Forster, N. C., Vinake, W. F. & Digman, J. M. (1955) Flexibility and rigidity in a variety of problem situations, *J. abn. soc. Psychol.*, 50/2, 211-216.

French, E. G. (1955) Interrelation among some measures of rigidity under stress and nonstress conditions, *J. abn. soc. Psychol.* 51/1, 114-117.

Goodstein, L. D. (1953) Intellectual rigidity and social attitudes, *J. abn. soc. Psychol.*, 48/3, 345-353.

Green, C. D. (1992) Of immortal mythological beasts, *Theory & Psychology*, 2/3, 291-320.

Hilgard, E. (1956) *Theories of learning*, New-York: Appleton - Century-Crofts, 2nd. ed.

Koch, S. (1992) Psycholgy's Bridgman vs. Bridgman's Bridgman, *Theory & Psychology*. 2/3, 261-290.

Kounin, J. S. (1943) Intellectual development and rigidity, in *Child behavior and development* R. G. Barker, J. S. Kounin & H. f. Wright. eds., New-York: McGraw-Hill, 179-197.

Leach, P. J. (1970) A critical study of the literature concerning rigidity, in *Thought and personality* P. B. warr ed. England: Penguin Books.

Lewin, K. (1935) *A dynamic theory of personality*, New-York: McGraw-Hill.

MacCorquodale, K. & Meehl, P. E. (1953) Hypothetical constructs and intervening variables, in *Readings in the philosophy of science*, New-York: Appleton- Century-Crofts, 596-611.

Nigniewitzky, R. D. (1955) A statistical study of rigidity as a personality variable, M. A. thesis. University of London.

Spence, K. W. (1953) The postulates and methods of behaviorism, in *Readings in the philosophy of science*, New-York: Appleton - Century - Crofts, 571-584.

Thomson, G. H. (1951) *The factorial analysis of human ability*, London: University of London Press, 5th ed.

مرجع بالعربية :

سويف (مصطفى) (١٩٥٤) مشكلة المفاهيم في علم النفس الاجتماعي،
الكتاب السنوي في علم النفس، ٢٢٣ - ٢٢٢.

